جـان جـــاك روســـو
عاشق الطبيعة وفيلسوف الثورة
١٧١٢م - ١٧٧٨م

جان

جاك روسو أحد الفلاسفة الأفذاذ، قدم للإنسانية مجموعة من الكتب والأبحاث، ســاهمت فى أهم الأحداث، وكان اشتعال وقيــام الثورة الفرنســية أهم إنجاز، وصدق نابليــون عندما قال: «لولا روسو ما حدثت الثورة الفرنسية».

عاش «روسو» حياة قاسية. فقد ولد فقيرا وعاش طريدا ومات بائسا حزينا، ومع ذلك كان جنديا باســلا يدافع عن حرية الإنســان والعدالة الاجتماعية والمساواة بين البشر، والعودة إلى بساطة الطبيعة.

شــهدت مدينة «جنيــف» فى الثامن والعشــرين من شــهر يونية ســنة ١٧١٢ ميلاد الطفل جان جاك من والدين متوســطى الحال. الوالد «إســحاق» يعمل بصناعة الساعات، معظم الوقت. ومعلما للرقص بعض الوقت. وكان خفيف الروح ميالا للكســل والمشــاغبة. والوالدة «سوزان برنار» ســيدة جميلة مثقفة تهوى الفــن والقراءة. وبعد ميلاده بثمانية أيام بدأ ســوء حظه ومعاناته بوفاة أمه. وضعف صحته. اهتمت عمته فى البداية به وأشفق الجميع عليه. وكانت تغنى له الأغنيات الجميلة

وترعـاه خـير رعاية حتـى إنه ظل يتذكرهـا طول حياته. وفى سـن السادسة علمه والده القراءة. فتعود الطفل عليها وعشقها. وساعده أبوه فـكان يجلس معه كل ليلة للقـراءة، فى البداية قرأ الكتب التى ورثها عـن أمه، وكانت فى معظمها قصصا وروايات. أحب الطفل القراءة حتى إنه كان يسـهر مع والده يقرأ حتى الفجر، بعد أن يتمتعا معا بتغريد الطيور.

لم يكتـف جـان جاك وهو فى هذه السـن الصغـيرة بالقراءة ليلا، بل اهتـم بأن يقضى نهـاره أو جزءا منه بين الكتـب، فقرأ كل مكتبة والدته، ثم الكتب الخاصة بوالده، بل استعار مجموعة من كتب أقاربه. اسـتولت هوايـة القراءة على طفلنا فقرأ فى شـتى المجـالات العلمية والتاريخية والدينية والسياسـية والوطنية والإنسانية، ووجد لذة فى المعرفة وأبدل الكتاب باللعبة التى تشـغل الأطفال فى مثل سنه فكانت الفائـدة عظيمة، وتعتبر هذه الفترة فى حياة «جان جاك روسـو» فترة خصوبة وتحصيل، فقد اطلع على الفكر العالمى وعرف معنى الإنسـانية وعشـق الحرية وكره الظلم والاستبداد، وكأن القدر يعده لرسالة كبرى يدافع فيها عن الإنسانية المعذبة وعن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

حدثت لوالد «روسـو» مشكلة دفعته إلى الهروب من جنيف، خوفا من السـجن والغرامة ظلمـا، فعهد إلى المهندس «برنـارد» خال الطفل روسـو برعايته فاهتم به وأرسـله إلى أحد الأسـاتذة المعروفين ليدرس على يديه، ووقعت مع هذا المدرس واقعة قد تكون بسيطة فى حقيقتها

لكنيـا أثرت فى طفلنـا تأثيرا كبيرا، بل وظـل يذكرها طوال حياته، وعندما كتب قصة حياته ذكر تلك الواقعة قال:

«إنى أشـعر وأنا أكتب هذه القصة بأن النبـض لدى لايزال مرتفعا وستظل هذه الذكرى فى نفسى إلى الابد، ولو قدر لى أن أعيش مائة ألف سـنة، فقد نقشت تلك التجربة القاسية - تجربة الظلم والقسوة - على صفحـات قلبى. ولو رأيـت ظالما يعتدى على إنسـان ظلما لعاقبت ذلك الظالم المعتدى فى الحال، ولا أبالى ما يحدث لى ولو كان فى ذلك الحكم علىّ بالموت مائة مرة».

أما تلك الواقعة فكانت مجرد اتهام روسو بكسر أسنان مشط وعوقب على ذلك مع أنه كان بريئا. وهذا هو سـبب شعوره بالظلم وهو فى هذه السن البريئة.

ذهب جان جاك روسو بعد ذلك إلى معلم آخر ليتعلم كتابة وتسجيل العقـود. لكنه لم يسـتمر لكراهيته لنوعية العمـل، والطريف أن هذا المعلم اتهم الطفل بالغباء والحمورية. فقد وصفه بأنه جحش صغير!.. أرسله خاله مرة ثالثة إلى نقاش ليتعلم فن النقش. لكنه لم يفلح بسبب قوة وغلظة النقاش أخذت الأيام تشـرد «روسـو» وتقسو عليه فذهب إلى إيطاليـا، وذاق طعم الحرمان والجوع والفقـر والضياع واليأس، وهناك قابلـه أحد الكهنة فأشـفق عليه. وهـذب قلبه ومشـاعره وأعاد الثقة والطمأنينة إلى نفسـه. وعرفه أن السعادة الحقيقية فى راحة الضمير، فقد تكون فقيرا وفى نفس الوقت سـعيدا. بدأ روسو يمارس هوايته فى

القراءة فقرأ سير العظماء والقديسين وقرأ فى التاريخ والطبيعة وعلم النبات، ووجد عملا عند سيدة إيطالية جميلة صاحبة حانوت، وكان يعمل مقابل طعامه وشرابه ولباسه فقط، ومع ذلك لم تستمر هذه النعمة له، إذ عاد زوج صاحبة الحانوت واشتعلت الغيرة فى قلبه من وجود هذا الشاب فطرده.

عمل روسو بعد ذلك خادما عند إحدى السيدات، ثم فى بيت رجل أرستقراطى مثقف، ثم انتقل إلى بيت سيدة كان يعرفها هى السيدة «دى وارنز» التى رحبت به وأعجبت بثقافته، وكانت تقرأ معه كتب «فولتير»، «ديكارت»، «جون لوك» وغيرهم، ولفتت شخصية الشاب روسو وذكائه السفير الفرنسى فى جنيف وهاله الفقر والتشرد الذى يعانيه فأرسله إلى باريس مرافقا لأحد الضباط سنة ١٧٣٢.

وعلى الرغم من رغبة روسو وحلمه لزيارة باريس إلا إنه تردد فى البداية لعشقه لحياة الريف والطبيعة، ويصف لنا الأستاذ محمد عطية الإبراشى فى كتابه «جان جاك روسو وآراؤه فى الإصلاح الاجتماعى» مدى حبه وعشقه للطبيعة فيقول:

«كان يحب الطبيعة وجمالها، والشمس وصفاءها، والأنهار وعذوبتها، والمياه وخريرها، والأشجار وظلالها، والجبال وارتفاعها، والطيور وتغريدها، والحقول وخضرتها، والأزهار ونضرتها، يميل إلى الجلوس فى الشمس بغير عمل، أو يقرأ تحت ظلال الأشجار، أو ينظر إلى الطبيعة الساحرة، يصغى إلى خرير المياه، وتغريد الطيور، وهديل

الحمام، يحب الوحدة والعزلة، يقرأ أو يكتب فى الحقول حيث لا يراه ولايشعر به أحد، يحب حياة السهولة والبدوء..».

كان روسو ابن الطبيعة وعدو المدينة والمظاهر الكاذبة وقد وهبته الطبيعة وجها جميلا، وفما صغيرا وابتسامة جذابة، لكنه كان معتل الصحة، ضعيف البنية مصابا بكثير من الأمراض الجسمية والنفسية، يشكو الأرق من حين لآخر، والخجل والاضطراب عند الكلام فى المجتمعات.

وصل روسو إلى باريس فلم يجدها كما تخيلها، وهالته شوارعها القذرة الضيقة ومنازلها القديمة، وحالة الفقر التى يعانيها الناس إبان هذا العصر المظلم، وساعدته الظروف على التعرف إلى حال الفقراء وكيف يضطهدون ويعذبون، فأثناء رحلته إلى باريس ضل الطريق واضطر إلى طلب الراحة فى كوخ أحد الفلاحين، وقدم له الأخير لبنا خاثرا وخبزا جافا، فالتهم روسو الطعام التهاما، ثم نظر إليه الفلاح نظرة فاحصة واكتشف أنه مازال جائعا، فأحضر إليه قطعة من اللحم والخبز اللذيذ وشيئا من العجة، مع زجاجة من الخمر المعتق، فانبرى روسو يشبع جوعه ويتمتع بالطعام الطيب، وأراد أن يدفع للفلاح ثمن الطعام فرفض الرجل، واعتذر عن تقديمه طعاما بسيطا فقيرا فى البداية لأنه تخوف من أن يكون روسو رجلا من رجال الحكومة الذين يفتشون عن الناس وممتلكاتهم لفرض ضرائب باهظة عليهم، لهذا تظاهر بالفقر فى البداية.

حزن روســو لما يلقاه الفقراء من ظلــم. وبخاصة بعد أن عرف أنهم يلقــون فــى النهر مالديهم من خمــور وطعام أحيانــا لعجزهم عن دفع الضرائب. وأن جواســيس الحكومة يراقبونهم فى كل وقت وكل مكان، والطريــف أنه إذا كان أمام كوخ أى فلاح ريشــة أو ريشــتان من ريش الدجاج فإن هؤلاء الجواســيس يكتبون عنهم أنهم من الأغنياء المشــتبه فيهم.

كانت رحلة روسو الأولى إلى باريس قصيرة. ولكنه عاد إليها ثانية سنة ١٧٤١. واستطاع أن يتعرف أكثر إلى المجتمع والأدباء والمفكرين، فولتير. مونتسكبيو. بافون. دى ألمبير، ديدرو. وغيرهم وربما صادق ديدرو أكثر من غيره لشــعوره بفقره مثله. أما فولتير مثلا فكان يعيش كالعظماء فى قصر يطل على نهر الســين. وينعم بامتلاك مكتبة كبيرة ثرية الثقافة والعلم. وكان جان جاك روســو يجول مشردا جائعا يهيم علــى وجهه فى باريــس باحثا عن عمل يرتزق منــه، يعيش فى فندق «سانت كنتين» فندق الفقراء والمساكين.

حاول روســو أن يندمج فى مجتمع باريس، فتعرف إلى نجومه فى الفلسفة والعلوم والشعر. والتهم كتبهم وكل كتاباتهم وحفظ أشعارهم. ولم تحرمه حالة الفقر التى يعانيها من الأمل فى مســتقبل أســعد حالا من حياته المهلهلة المضنية السابقة. وفى أغسطس سنة ١٧٤٣ قدم بحثا فى الموسيقى إلى المجمع العلمى فى باريس. ولكن لجنة المجمع رفضت البحث والمشــروع. مما بعث الحزن فى نفســه، والحقيقة أنه أخطأ فى

محاولتـه هذه، لأنه لم يدرس الموسيقى، وإنما اعتمد على قدرته على التذوق وصداقته ببعض الموسيقيين وهذا لايكفى بالطبع.

تعـرف روسـو وهـو فـى فنـدق «سـانت كنتـين» إلى فتـاة شـابة جاهلـة تعمـل خادمـة، ريفيـة طيبـة القلـب، اسمهـا «تريزا ليفاسور theirese levasseur»، شرهة فى الحصول على المال، لكنها تتمتع بجمال الخلقة والصوت، وكانت تتعرض فى الفندق لتهكم وسـخرية المسـافرين، فأشـفق عليها وجذبه جمالها، ونسى أن جمال الشـكل والجسـم لايغنى عن جمال العقل والتربية، مع أنه الفيلسوف وعـالم التربية، وحاول تعليمها وتثقيفها ولم يفلح، فقد كانت بجانب جهلها ضعيفة العقل، وظل يشـفق على الفتاة «تريزا ليفاسـور» حتى أصابت سهام الحب قلبه فأحبها وجن بها وبادلته الحب، واقترن بها وعاش سـعيدا معها فى البداية، على الرغم مـن الخلافات التى كانت تسـببها والدتها «حماته» له، وقد تحمل الكثـير من أجلها، ويعتبر روسو أول من وضع نظام الزواج العرفى، إذ تزوج تريزا بحضور ضيفين وحسـب، أحدهما عمدة البلد، وصرح أمامهما بأنها زوجته، وهذا هو الزواج العرفى الذى يعتمد على وجود اثنين من الشهود.

كانـت ثمرة هذا الزواج خمسـة أطفال أرسـلهم روسـو جميعا إلى الملجـأ الواحد بعد الآخر، ومن عجب أنـه كان يترك الطفل دون كتابة اسمـه أو تاريـخ ميلاده أو عنوانه أو أى وثيقة تـدل عليه، وعاش بعد ذلـك لايعرف أولاده، وكذلك لم يعرفوه، بـل لم يتعرفوا إلى بعضهم،

وكانت تريزا تتألم لهذا الوضع الغريب وتوافق عليه مضطرة، لكن قلبها كان يتمزق على أطفالها، وربما كان هذا من الأسباب الرئيسية التى حطمت حبها لروسو، فقد شعرت أنه أنانى محب لنفسه ومجده فقط، مجرد من المشاعر الإنسانية الطبيعية.. والواقع أن قضية أبناء روسو الذين أرسلهم جميعا إلى الملجأ من القضايا المهمة التى يتعرض لها كل من يكتب عن حياته، فهى سقطة بلا شك تمثل حالة غامضة فى تاريخه، وقد استغلها أعداؤه ضده، كما فسرها الآخرون تفسيرات غريبة عجيبة، فمنهم من قال إنه كان يشك فى زوجته، وبالتالى كان يشك فى وجود أطفال منها، وقول آخر إن زوجته لم تلد ولكن أمها كانت تدعى أنها حامل لتأخذ من روسو المال الذى تريده، وقول ثالث إنه كان عاقرا لم ينجب.

لم يسعد روسو بزواجه كما كان يعتقد، بل اكتشف بعد ست عشرة سنة تقريبا من الزواج أنه أخطأ الاختيار عندما تزوج امرأة لا تستطيع مشاركته فى حياته الفكرية وآرائه ومشروعاته الثقافية، فهى جاهلة ساذجة ضعيفة العقل، وهو فيلسوف مفكر متقد الذكاء، وهيهات أن يلتقى الاثنان، وكان موقف تريزا أيضا الرفض - بعد هذه السنوات - وطلب الطلاق من الزوج الأنانى الفيلسوف الذى لم يفهمها، وحرمها من أطفالها، ومع ذلك لم يتم الطلاق وظلت زوجته وشريكة حياته حتى توفى.

على الرغم من فشل مشروع روسو الموسيقى إلا إنه كان أديبا مطبوعا، يتمتع بأسلوب جذاب، واضح الفكرة، عالما واقتصاديا وسياسيا،

موسوعى الثقافة، مما ساعده على النجاح والشهرة الأدبية. فى سنة ١٧٤٩ اشترك فى مسابقة المجمع العلمى بديجون كان عنوانها: «هل ساعد نجاح العلوم والفنون فى إفساد الأخلاق أم تهذيبها»؟

انبرى روسو فى دراسته مستغلا تجاربه الثقافية والحياتية والتحامه بالفقراء كواحد منهم واستطاع أن يقدم رسالة شجاعة قوية بأسلوب عذب وروح ثورية لاتعرف الخوف ولا تؤمن بالتقاليد الموروثة، وبرهن على أن للعلوم والفنون والآداب أكبر الأثر فى إفساد الأخلاق، وشقاء الإنسان، وانتشار الرذائل.

وقال روسو إن الإنسان المتمدين لا يظهر كما هو، والمجتمع المتمدين لا يظهر بحقيقته، والإنسان المتحضر يسىء الظن بغيره، قليل الثقة، كثير الخوف والحقد، كثير البغض والخيانة، ويخفى هذه الصفات كلها فى نفسه، ويتظاهر بالأدب والثقافة والعلم، وما هو بأديب ولا مثقف ولا عالم، وقد فسد خلقيا وأدبيا.

أما علاج ذلك فبالعودة إلى الطبيعة والبساطة والفضيلة والبعد عن الترف والرذيلة، وعدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء فهذه مصدر كل شقاء فى العالم.

استطاع روسو الفوز بجائزة المجمع العلمى بديجون، والأهم من ذلك أن هذه الرسالة جعلته من كبار الكتاب والأدباء الأكثر شعبية.

فى سنة ١٧٥٢ كتب أوبرا هزلية تحت عنوان «منجم القرية» ثم ملهاة بعنوان «نرجس» ثم كتب سنة ١٧٥٤ كتابه الشهير «عدم المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان» وأجاب فى هذا الكتاب عن

السؤال الذى حيّر البشرية ومازال وهو: ما الأصل فى عدم المساواة بين الناس؟

أثبت روسو أن المدنية هى السبب فى عدم المساواة بين الناس، وأن التفكير الإنسانى أدى إلى الحضارة والمدنية والترف، وهذه كلها أصل كل شقاء وهى السبب فى عدم المساواة. وقال روسو:

«فى الوقت الذى يضيع الأغنياء ثرواتهم فى أنواع المسرة والملذة لايجد الفقير ما يكفيه من الطعام، وفى الوقت الذى يجد فيه الصانع أو العامل الضروريات يجد الثرى الكماليات، وإن فضلات الطعام على موائد الأغنياء تكفى كثيرين من الفقراء». وقد بين أن الرجوع إلى الطبيعة يؤدى إلى المساواة، لأن الناس كانوا فى حالة الطبيعة متساوين ولكن المجتمع والحضارة هما اللذان أديا إلى مانرى بينهم من فوارق بسبب ظهور أشخاص أقوياء نصبوا أنفسهم سادة على غيرهم. وبذلك ولدت المجتمعات البشرية قائمة على التفرقة بين الناس، وأن الإنسان بانتقاله من حالة الطبيعة إلى الحالة الاجتماعية فقد أثمن شىء لديه وهو حريته.

كتب روسو بعد ذلك «رسالة فى الاقتصاد السياسى» ضمنها مبادئه السياسية والاجتماعيه.. وأهمها: يجب أن يعبر القانون عن إرادة الشعب.

يجب أن تقوم الحكومة بتعليم جميع الأطفال تعليما حقا تحقق فيه المساواة، حتى يعتاد كل طفل المبادئ الديمقراطية.

يجـب أن تفرض الضرائب على الأغنياء لا الفقراء، ولا تفرض على الضروريات بل على الكماليات فى الحياة.

من كتب روسـو المهمة والخطيرة كتابه «العقـد الاجتماعى» يقول روسـو إن وجود الحكومة هو نتيجة عقـد اتفاق بين الحاكم والمحكوم يوجـب علـى الأول أن يفكر فـى مصلحة الآخر وفـى حقوقه ويطالب الثانى بالقيام بالواجب عليـه لذلك، والحكومة هى الأمة، والأمة هى الحكومة، ويجب أن تكون الحكومة من الشعب. وتعمل للشعب، وتفكر فى مصالح الشـعب، والنهوض به علميا وصحيـا، وخلقيا واجتماعيا، وزراعيا وتجاريا، وصناعيـا وفنيا، وحربيا وبحريا، بحيث تفكر فى كل ناحيـة من نواحـى الإصلاح الذى يتطلبه الشـعب، فتعمل لإصلاح ما فيـه من عيـوب، وتقويم ما به من اعوجاج للسـير بـه فى الطريق المستقيم، وتحقيق سعادة المجتمع ورفاهيته.

وطالب روسو الحكومة بتحقيق حرية كل مواطن والمساواة والعدالة الاجتماعية، بحيث لايصل الغنـى إلى منتهى الثروة، ولا يصل الفقير إلى منتهـى الفقر، حتى لا يسـتطيع الغنى أن يشـترى الفقير بماله، ولا يضطر الفقير إلى أن يبيع نفسه لشدة حاجته وفقره، فالجوع انتحار، ومن القتل أن يرى الإنسان أطفاله يموتون جوعا بجريمة الأغنياء، فقد خُلق الإنسان حرا وهو مستعبد مكبل فى كل مكان!.

ومع تأثر روسـو فى كتابـه «العقد الاجتماعى» الذى أصدره سـنة ١٧٦٢ بفلاسـفة اليونان سقراط وأفلاطون وأرسطو، وزملائه الفرنسيين

والإنجليز مونتسكيو وفولتير، وجون لوك، وهوبز، وغيرهم إلا إنه استطاع فى شجاعة وجرأة أن يعبر عن رأيه دون خوف من السلطة. فى الوقت الذى كان الحبس وحرق الكتب والتشريد هو النتيجة الطبيعية لكل من يتجرأ على المعارضة، أو نقد الأوضاع السياسية، من هنا اعتبر الشعب «العقد الاجتماعى» إنجيلا للثورة الفرنسية التى قامت سنة ١٧٨٩، أى بعد وفاة روسو بإحدى عشرة سنة.

يقول الدكتور حسن سعفان عن كتاب «العقد الاجتماعى» لجان جاك روسو: إن العقد الاجتماعى ليس فى الحقيقة إلا جزءا من كتاب آخر ضخم كان روسو يزمع إخراجه لولا أن الوقت لم يسعفه. هذا الكتاب هو «النظم السياسية»، على أننا لا يمكن - ونحن نتحدث عن كتب ومؤلفات روسو - أن نغفل كتابه المهم فى التربية «اميل» أو إنجيل التربية فى القرن الثامن عشر، وقد حاول به أن يكفر عن جريمته فى إرسال أطفاله الخمسة إلى الملجأ، وفيه ذكر واجب الأبناء على الآباء والأمهات. تقول «الموسوعة الفلسفية المختصرة» التى أشرف عليها الدكتور زكى نجيب محمود عن هذا الكتاب:

«رواية اميل هى أعظم ما كتب فى التربية على الإطلاق، أوسع تأثيرا وأدوم بقاء، وهى تذهب إلى أن التربية يجب ألا تكبح أو تطوع ميول الطفل الطبيعية بل يجب أن تشجعها حتى تنمو وتزدهر، كما أن التعليم لا يجب أن يأتى من الكتب ومن الإرشادات اللفظية، بل من الأمثلة والخبرة المباشرة بالناس والأشياء، والأسرة لا المدرسة

هى الميدان الحقيقى للتعليـم، وأدواته هى الحب والتعاطف لا القواعد والعقوبات. ولاينبغى أن يكون الدين مسـألة عقائد ومعتقدات ونصوص وشكليات وإنما هو أن يتغلغل فى القلب الشعور بالهيبة والعبادة. ذلك الشعور الذى يوحى بالله الذى هو وراء عقولنا..»

ومن عجب أن صاحب هذه الآراء المفيدة فى التربية لا يربى أطفاله، وإنما يرسلهم جميعا إلى الملجأ!.

قبل وفاته كتب «روسـو» قصة حياته. انتهى من الجزء الأول سنة ١٧٦٦، ومن الجزء الثانى سنة ١٧٦٨، وحتى لا يسيىء لأحد أوصى ألا تنشر هذه الاعترافات إلا بعد وفاته. فقد كان صادقا مع نفسه واعترف بكل شـىء الأخطاء والخطايـا وعلاقاته مع الجنس الآخـر والأصدقاء وعشـقه للطبيعة. وحالة الفقر والتشـرد التى تعرض لها، وباختصار فإنه أفرغ نفسـه على الورق بكل ما فيها من حوادث وأسـرار بأسلوب عذب شيق جذاب شجاع مما جعل اعترافاته هذه من الاعترافات القليلة النادرة فى التاريخ، وقد نشرت بين السنوات ١٧٨١ - ١٧٨٨.

يقول روسو فى هذه الاعترافات:

«كنت أتمنى حياة سـليمة هادئة. أعمل عملا يلائم ذوقى، وأعيش بين جماعة يتصل بها قلبى.. كنت أتمنى أن أستمر على مذهبى الدينى فى بلدى وموطنى بين أسرتى وأصدقائى.. كنت أتمنى أن أكون مسيحيا طاهـرا، ووطنيا مخلصا. وأبا بارا. وصديقا وفيا. وعاملا ماهرا.. كنت أتمنى أن أكون سعيدا فى كل أوقاتى وأحوالى، أحيا حياة هادئة وأموت ميتة هادئة بين موطنى وأصدقائى وأسرتى..».

لم تكن نهاية «روسو» أفضل من بدايته، بل ظل فقيرا شريدا معذبا متوجسا حزينا، يتنقل من فرنسا إلى إنجلترا، وعلى الرغم من إعجاب الإنجليز به، وتخصيص الملك «جورج الثالث عشر» معاشا سنويا له يعيش منه، إلا أن سوء الحظ لازمه فلم يتسلم هذا المعاش – وقدره مائة جنيه – إلا مرة واحدة، ثم استولى عليه أحد أصدقائه!.

أخذ روسو وتريزا يبحثان عن الاستقرار والراحة وهما فى هذه السن المتأخرة دون جدوى، فقد كان الفقر صديقهما والعذاب طريقهما، والبؤس حالهما، وكان روسو يهرب من هذه الحال السيئة إلى الغابات والجبال والسهول والوديان يتمتع بجمال الطبيعة وسحرها ويستنشق الهواء العليل، ويمارس هوايته فى البحث والدراسة عن كل نبات نادر وجديد، وتربية الطيور، ومشاهدة شروق الشمس وغروبها، كما كان يعمل بنسخ الموسيقى، يكتب خمس صفحات كل يوم، حتى يجد قوت يومه.

أدت ظروف الحياة القاسية إلى إصابة روسو ببعض الأمراض النفسية مثل الخوف والشك فى الناس والهواجس، يقول يوسف ميخائيل أسعد فى كتابه «العبقرية والجنون»:

«كان هذا المربى المشهور والكاتب العبقرى القدير يظن أن كل إنسان فى الوجود منافس له حتى إنه كان يخشى البرق والرعد ويظن أن حدوثهما موجه ضده، وهو نوع من انتقام السماء، وكان لا يأكل إلا الطعام الذى يجهزه بنفسه لأنه يخشى إذا أكل طعام طاهيته أن يكون أحد منافسيه قد أغرى الطاهية ودس له السم فيه..».

أرسل أحد أصدقاء روسو والمعجبين به. ويدعى «سانت بيير» هدية له من البن الجيد النادر، فما كان من روسو إلا أن غضب وكتب له رسالة شديدة اللهجة خيره فيها بين أن يسترد هديته من البن أو أن يقطع صلته به نهائيا، واضطر أن يقبل منه هدية بدلا من البن.

فى السنتين الأخيرتين من حياته، ترك نسخ الموسيقى وأصبح معدما لا يجد الغذاء الضرورى، وتمنى أن يقبل هو وزوجته فى أى مستشفى أو ملجأ ليعيشا بأقل الطعام والشراب والملبس بحثا عن الراحة فى هذه السن المتقدمة، بل تمنى أن يودع هذه الحياة إلى حياة أفضل وأسعد حالا. وقبل وفاته قال لزوجته الحزينة:

«أتبكين لسعادتى؟ أتبكين لتلك السعادة الأبدية التى لا يستطيع أحد أن يعكر صفوها؟ إنى أموت هادئا، لأنى لم أفكر مطلقا فى إيذاء أحد، وأنا واثق برحمة الله..».

لم رحل روسو فى اليوم الثانى من شهر يونية سنة ١٧٧٨، وهو نفس العام الذى رحل فيه أيضا الشاعر والفيلسوف الساخر - صديقه - «فولتير». وقرر الطبيب بعد الوفاة أن روسو مات بالسكتة القلبية. وقد دفن فى ليلة هادئة مقمرة من ليالى الصيف، بين أشجار الحور والطبيعة الجميلة التى عشقها طوال حياته فى «أرمونفيل» وبعد قيام الثورة الفرنسية الخالدة سنة ١٧٨٩ حمل الثوار رفاته، ليدفنوه فى مدافن العظماء بباريس بعد ست عشرة سنة من موته.

هكذا عاش «جان جاك روسو» حياة فقيرة حزينة مضطربة بائسة، لكنه استفاد من فقره وبؤسه وقدم للإنسانية أروع المؤلفات التى

تحترم الإنسان وحريته وحقه فى الحياة الكريمة الهادئة السعيدة الغنية التى تفى بحاجته المادية واحتياجاته النفسية، ويبدو أن المثل القائل «رب ضارة نافعة» صحيح فى بعضه، فقد استفاد روسو من فقره ومعايشته للفقراء، وفى هذا يقول محمد حسين هيكل فى كتابه «جان جاك روسو حياته وكتبه»:

«وما كان روسو لينتج هذه الثمرات الشهية العظيمة القدر لو أنه لم يطارد ولم يشعر إلى أعمق غور نفسه بظلم أهل عصره، وما كانت روحه لترفرف على الثورة الفرنسية وتغذوها بكل ما غذتها به من حياة لو أن أهل عصره كانوا أكثر تسامحا وعدلا، لكن الظلم يحمل فى طياته جراثيم موته، وحياة الوجود تنتقم لنفسها من كل من يطمع فى البغى عليها، ونوابغ الرجال أعلام الهدى هم أداة هذا الانتقام، لأن نفوسهم المملوءة بمعنى العدل تظهر الظلم أمام الناس فى أبشع صوره فيستفز فى قرارة نفوسهم ذلك القبس من نور الحق، إن أخفته مصالح العيش حينا فإنها لن تستطيع القضاء عليه ولن تستطيع قتله.. على أن ظلم الإنسان للإنسان هو أبدا تافه ككل شؤون الإنسان، والأسباب التى تؤدى إليه أدنى منه وأتفه، فماذا يبغى الظالمون من ظلمهم غير المتاع من مصالح العيش بالبسطة فى الرزق والجاه؟ وما بسطة رزق العيش وجاهه.. إلا جانب عظمة الحياة ومجدها، أليست تافهة فى كمها تفاهة الفرد منا إلى جانب الوجود العظيم، مع ذلك فهى التى تحرك الأكابر وذوى السلطان وتوجههم فى أعمالهم وتعيد لهم سبلهم وتدفعهم للمحافظة

بكل ما لديهم من الوسائل على النظام القائم الذى يمكن لهم من هذه البسطة ولمحاربة كل جديد يخشى منه عليها.. وهذا ما دعا كل أولئك الذين حاربوا روسو لمحاربته وما دفعهم للتألب عليه ومطاردته وهذا هو ما استثار الجيل الذى جاء بعدهم للاعتراف بفضله وإقرار مجده..».

كان روسو صادقا فى دعوته، إنسانيا فى مبادئه، مخلصا فى رسائله، ولذلك سجن وتشرد من بلد إلى بلد، وأحرقت كتبه، لكن مبادئه ظلت خالدة، ولم تنتشر فى فرنسا وحدها، بل فى الولايات المتحدة الأمريكية والعالم كله، ومازال العالم يذكر هذه المبادئ التى أصبحت حقا لكل إنسان، وستظل كذلك طالما يعيش الإنسان ويتعرض للظلم والفقر والاضطهاد والقهر.

جان جاك روسو هو أحد العباقرة الذين يعيشون فى الذاكرة.. ذاكرة كل إنسان فى العالم يريد أن يكون حرا ويؤمن بالمساواة الكاملة بين كل إنسان وأخيه الإنسان.

□□□